الفصل السادس عشر

« كيف أوصلتمونا إلى ما نحن فيه؟».

هل كان السؤال لشهرزاد أم لمحمود؟ أحاول أن أجيب على السؤال، أجد نفسي متعثرا متحيرا أتساءل: ألا سبيل للإجابة سوى هذا التقافز المرهق بين التواريخ وقصاصات الجرائد والكتب؟ هل أنظر بعيدا لأفهم أم أنني أغض الطرف عن لحظة راهنة محاصرة بالخيبة من الجهات الأربع؟ لماذا خاب المسعى إلى هذا الحد، ما الذي حدث ومن المسئول؟ لم لا أضع الآتين من وراء البحر جانبا، فهذه شغلتهم منذ مئات السنين، لا جديد، أتوا ويأتون الآن وفي المستقبل كأسراب الجراد تقصد خضرة الحقل. تشبيه ركيك هزيل. أي جراد يكنى عن آلة شيطانية تنتج خرائط، وتقيم دولا، وتهدم تواريخ، وتسحب أرواحنا كما تسحب النفط من باطن الأرض عبر خطوط الأنابيب من هنا إلى هناك لأغراض الوقود؟! ليست هذه هي المشكلة ولا الموضوع ولا السؤال. لم تقل لك البنت كيف أوصلونا، بل كيف أوصلتمونا إلى ما نحن فيه، سؤالها عن المتاريس والدفاعات ووظيفة الحراس. ضرب الناظر بيده على المائدة وصاح: أي حراس؟! حارس مُقْعَد، وحارس ضرير، وحارس يؤمّن الثغرة في السور لمرور القادمين إلى القلعة من وراء البحر؟ ولماذا صورة القلعة؟ لا قلعة هناك، ولا متاريس، لا حرب أصلا بل أرقام مفردة لجمع من البشر، منهكين في حيز ضربته كما الزلزال الشيخوخة فخلفت له اختلال العقل وأوجاع المفاصل، وتحلُّل له رائحة خنازير نربيها في البيت، نستأنس رائحتها